وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

سماحة الإسلام بين التشريع والتطبيق

اسم الباحث/ـة

د/ فاضل يونس حسين البدراني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

مُسَلِّمًا قَدْ جِئْتُكُمْ مُبَسْمِلا، مُحَمْدِلا، بَلْ دَاعِيًا، مُحَوْقِلا
مُصَلِّيًا عَلَى النَّبِيّ، وَآلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَمَنْ بِحُبٍّ أَقْبَلا

حمدًا لله، وصلاةً وسلامًا على رسوله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن من الحقائق التي لا يمكن التشكُّك فيها أنَّ الإسلام دين السَّماحة، والسَّلام، والمحبَّة، والوئام، واللطف، والاحترام، والرأفة، والرَّحمة، والحلم، والشفقة، والحنان، يقول ربنا ﷻ مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩]، والله ﷻ يخاطب الرسول بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النَّحْل: ١٥٩]. كما يصفه ﷺ بأكرم صفة وخلة بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأَنبِيَاء: ١٠٧]. ثم إنه ﷻ يخاطب الناس جميعًا، والبشرية قاطبة، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾ [الحُجُرَات: ١٣].

تبين تلك الآي الكريمات ومثيلاتها من أترابها، مع أحاديث شريفة، تجسدت على أرض الواقع في أحداث السيرة العطرة، وتأريخ الإسلام، تبين أن الإسلام دين التَّسامح والمحبَّة والسَّلام الشامل العام.

ثم إنَّ البحث يتمحور فعلًا حول بيان سماحة الإسلام تشريعًا وتطبيقًا، ويهدف إلى عرض تلك الفكرة عرضًا مقنعًا مؤيدًا بوقائع التأريخ التي وصلتنا بأصح الطرق في نقل الأخبار.. وبذلك تبرز أهمية الموضوع حيث يرد بالحجة القطعية افتراءات المغرضين على الإسلام الذين يرمونه بالعنف، لا سيما في دراسات المستشرقين وأذنابهم، وهذا ما دعاني إلى الكتابة فيه، وكفى به سببًا وجيهًا، وهو سبب أرجو أن يقربني إلى الله مولانا رب العالمين ﷻ.

والبحث يرجو بثقة بفضل الله ﷻ ومنّه حصد نتائج مهمة، ليبرز إضافة علمية ملموسة. وقد صيغ عنوانه موسومًا بـ: "سماحة الإسلام بين التشريع والتطبيق". بغية تقديمه إلى مؤتمر هدايات القرآني في بناء الإنسان في محوره الرابع والمزمع عقده في ٢/٣٠/ ١٤٤٦. وسلك منهج الوصف والتحليل في طرح فكره وعرض بضاعته. أما خطة البحث: فمقدمة مع تمهيد يعرف مفردات العنوان، ثم مباحث ثلاثة: الأوَّل: فضل السَّماحة ومشروعيتها، والثاني: واقعية سماحة الإسلام، والثالث: تطبيقات سماحة الإسلام، ثم الخاتمة الضامة للنتائج والتوصيات والمقترحات، وأخيرًا قائمة بالمصادر والمراجع.

التمهيد: تعريف السَّماحة (التَّسامح):

لم يرد في كتاب الله ﷻ لفظ السَّماحة ولا مشتقاتها، لكن وردت ما ينطوي تحت مفهومها مفردات أخرى وألفاظ، سنبينها في محلها، وقد جاء صراحة في السنة، فالإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ) ﵀ أخرج في صحيحه [١] مرفوعًا عن جابر بن عبد الله بن الحرام الأنصاري: أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى)، وفي رواية: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ سَمْحَ البَيْعِ، سَمْحَ الشِّرَاءِ، سَمْحَ القَضَاءِ) [٢]. والحديثان نصٌّ على السَّماحة. والتَّسامح، فهل ثمة فرق بينهما؟

السَّماحة والتَّسامح لغة:

السَّمَاحُ والسَّماحة: الجود وهو الكرم والسخاء. سَمَح به يسمَح سَمَاحاً وسَمَاحةً أي: جاد. وسَمَحَ له: أي أعطاه. وسَمُحَ من باب ظرُف [٣]: صار

(١) صحيح البخاري، كتاب: البيوع، باب: الانبساط إلى الناس: برقم: (٢٠٧٦).

(٢) سنن الترمذي، أبواب البيوع، باب: ما جاء في استقراض البعير: برقم: (١٣١٩)، وصحَّحَه الحاكم، ووافقه الذهبي: المستدرك على الصحيحين: برقم: (٢٣٣٨).

(٣) الباب الخامس: ظرُفَ- يظرُف، بزنة فعُل- يفعُل. وهذا الوزن يدل على الثبات، فسمُح: أي صار سمحًا دائمًا.

سَمْحاً. وقوم سُمَحاءُ بوزن "فقهاء"، وامرأة سَمْحةٌ، ونسوة سِمَاحٌ. والْمُسَامَحَةُ: الْمُساهلة، وتَسامَحوا: تساهلوا (١). وذا بيت القصيد فيما أرى.

وسمح: سَمْحا سَمَاحاً وسَمَاحةً: لانَ وسَهُل. وَيُقَال: سَمَح الْعودُ: اسْتَوَى وتجرَّد من العُقَدِ وانقاد بعد استصعابٍ... وَيُقَال سمح لَهُ بحاجة: يسَّرَها لَهُ [بل أباح، أو أتاح]. وسمح، سماحة وسموحة: صَار من أهل السَّماحة، فَهُوَ سَمْحٌ وسَمِيحٌ (٢). على وزن "فَعْلٌ، وفَعِيلٌ".

وقد يتسع اللفظ إلى معاني مقاربة، فالتَّسامح: جزء من العدالة، والتَّسامح الدينيّ: احترام عقائد الآخرين، وبيع السَّماح: بيع بأقلّ من الثَّمن المناسب، وهو الوارد في الحديث السابق، وسماحة الإسلام: يُسْرُه، يقال: دينٌ سَمْحٌ. أي: فيه يسرٌ وسهولةٌ، وشريعةٌ سَمْحةٌ. وسَمْحٌ: صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من سَمُحَ (٣).

مما سبق ندرك أنَّ السَّماحة لغة تعني: اللين واليسر والرَّحمة وسخاء النَّفس والكرم، والبذل بنفس طيبة، مع ترك البخل والجفاء والغلظة والقسوة، وما أشبهها من دنيئات طباع النُّفوس الخبيثة. فبعد التخلي عنها يأتي دور التحلي بالسماحة، للوصول إلى التجلي بصفة الإنسانية الكاملة.

فالتسامح هو: العطر الذي تطبعه زهرة البنفسج على القدم التي سحقتها. والشجرة لا تحجب ظلها حتى عن الحطَّاب.

وأنا أظن أن تاء التسامح من التبري من الانتقام، والسين فيه سر السلام، والألف رمز الألفة، والميم ميم المودة الخالصة، والحاء من الحلم والحنان والحكمة، وليس ظني بخائب تبعا لمدلولات لغة الضاد.

---

(١) ينظر: (مختار الصحاح: ١٥٣).

(٢) ينظر: (المعجم الوسيط: ١/ ٤٤٧).

(٣) ينظر: (معجم اللغة العربية المعاصرة: ٢/ ١١٠٤- ١١٠٥). وقد تبين ذلك في الهامش الثاني.

السَّماحة والتَّسامح اصطلاحا (indulgence – Wideness):

التَّسامح: مشاركة بزنة تفاعل من السَّماحة، والسَّماحة: هي بذل ما لا يجب تفضلًا [(١)].

أو: بذل جميع الحقوق التي عليك، والاقتناع ببعض الحقِّ الذي هو لك، والإغضاء عن التقصير [(٢)].

والذِّي أراه، وأميل إليه: أن التَّعريف الأوَّل أوجه؛ بسبب الحبكة الفنيَّة في صياغته، فضلًا عن استيفاء ما يدخل فيه، ومنع ما لا يدخل، وهو ما تعارف عليه المناطقة من وجوب كون التَّعريف جامعًا مانعًا.

كما أنَّ السَّماحة لا تنحصر في ذلك الإطار الضيّق البتّة، بل إنّما تعني أكثر مما تعبّر عنه؛ لذا يرى الباحث أنَّ السَّماحة: تخلُّقٌ بأحسن الخُلق؛ خلق ربِّ العالمين ﷻ القائل: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨]،

والقائل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾ [الرَّعْد: ٦]، والقائل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأَنْعَام: ١٤٧].

فالتَّسامح مع الغير يكون بتيسير الأمور، والملاينة فيها، وعدم القهر.. وسماحة المسلمين تبدو في تعاملاتهم المختلفة، سواء فيما بينهم، أو مع غيرهم من أصحاب سائر الملل والدّيانات الأخرى [(٣)].

وقبيل التحوَّل إلى المبحث القادم أرى لزامًا عليَّ أن أشير إلى أنَّ: مفردة التَّسامح تحمل اختلافًا في المعنى بين اللغتين: العربية والإنجليزية، فإن الجذر

---

(١) ينظر: (التعريفات: ١/ ١٢١؛ معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم: ١/ ٢٠٦؛ التوقيف على مهمات التعاريف: ١/ ١٩٧؛ موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ٩٧١).

(٢) ينظر: (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن: ١/ ١٤١– ١٤٢).

(٣) ينظر: (موسوعة الأخلاق الإسلامية: ١/ ٢٦٢).

الإنجليزي: (Toleratin) مشتقة من جذر لاتيني هو (Tolerare) بمعنى: التَّحمل، والمعاناة، أو التَّعايش مع أمر غير مرغوب فيه ولا محبوب، أي فيه إجبار المرء على قبوله رغما عن أنفه، وهذا بخلاف الجذر العربيّ الذي محور معانيه المرونة والسُّهولة واللِّين، التي فيها تنازل لشخص أو جماعة عن رأي أو حقٍّ رغبة لا رهبة، تعبيرًا عن سموِّ الأخلاق والتَّهذيب وحسن التَّعامل [1].

أقول: سبحان الله ﷻ، حتى اللُّغة العربيَّة تحتضن قيم السَّماحة، بخلاف غيرها، وهذا إنما سرى إلى العربية من أثر القرآن الحكيم، الذي هذَّب النفوس المؤمنة، بدءًا من الألفاظ المجردة حتى تحقيق الأفعال، قال ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

(١) ينظر: (التسامح بين شرق وغرب – دراسات في التعايش والقبول بالآخر: ٦ – ١٠).

المبحث الأوَّل: فضل السَّماحة ومشروعيتها:

المطلب الأوَّل: فضل التَّسامح في القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم زاخر بأدلة التَّسامح، فضلاً عن إباحته، وليس المقصد هنا باعتبار اللفظ؛ إذ سبق القول بأن اللفظ لم يرد في كتاب الله ﷻ، ولكن التَّسامح كمفهومٍ وارد في القرآن المعجز ورودًا يطمئننا إلى رسوخ الفكرة عنه إلى أقصى درجة وأعلاها وأحلاها، فالآيات تترى في الحثِّ على العدالة، والعفو والصَّفح، والرِّفق والحلم، والرَّحمة، ولين القول، وخفض الجناح، والجدال بالتي هي أحسن. وهذه ليست إلا روافد تصبُّ في نهر التَّسامح. أجل يرى أ. عبد القادر بوعرفة أننا لا نجد في ثقافتنا العربية للتسامح حضورًا أو تداولًا، فالسلوك المشهود للمسلمين في علاقاتهم مع بعضهم أو مع غيرهم مال نحو مصطلح أو مفردة العفو(١). فنحن نقرأ في كتاب الله ﷻ عن الرَّحمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأَنبِيَاء: ١٠٧]. هذا الوصف هو الأنسب بنبي الإسلام ﷺ. ويرى المستشرق الإسباني: "جان ليك هينيج Jean-Luc Hennig ": عدم إمكان وصف حياة محمَّد [ﷺ] بأحسن مما وصفها الله ﷻ بهذه الآية الكريمة، كان محمَّد رحمة حقيقية (٢).

ويقول ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٥٩]. إن كلمة الرحمة تكررت في القرآن (٧٩) مرة. والملاحظ هنا في هذه الآية الكريمة جمعها عنصرين من عناصر السَّماحة؛ العفو المقابل للعقاب، مع اللين المقابل للغلظة أو القسوة، التي تسبب الانفضاض والنفور. ويقول ﷻ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التَّوۡبَة: ١٢٨]. وإذا كان القرآن الكريم

(١) ينظر: (التسامح الفعل والمعنى: ١٤).

(٢) ينظر: (الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة: ١٧٨)؛ (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح: ١١٩).

قد صرَّح بالرَّحمة في بعض المواضع كما نرى هنا، فإنه استعار لها ما يناسبها من الألفاظ الجميلة كخفض الجناح الذي ينوب تمامًا عن السَّماحة فيه، ومن تلك الاستعارات قوله ﷻ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الحِجر: ٨٨] (١).

فخفض الجناح مجاز بالاستعارة، حيث شبه سبحانه حُنُوَّهُ ﷺ على أصحابه تمامًا بوضع الطائر أولاده بين جناحيه، مبالغة في الصون والحفظ والحيطة(٢)، والتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح صورة معبرة محسوسة، تمثل لطف الرعاية، وحسن المعاملة، ورقة الجانب، على الطريقة القرآنية في التعبير.. وعبارة ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾: مأخوذة من خَفْض جناح الطائر، فهو يرفع جناحه عند الطيران، لكنه يخفِضه إن لمس فرخَه الصغير ليضمَّه إليه. إذاً: فالطاقة التي كنتَ توجهها يا رسول الله إلى من لا يستحق؛ عليك أن توجهها لمن يستحقها، فيكفيك أن تبلغ النَّاس جميعًا برسالتك؛ والمؤمن منهم هو المستحق لطاقة حنانك ورحمتك (٣). إن عبارة "خفض الجناح" تمثيل للرفق (أو لين المعاملة) والتواضع بحال الطائر إن شاء أن ينحط للوقوع خفض جناحه ليدنو، أو يلاعب أنثاه. وفي ضمن هذه التمثيلية استعارة مكنية(٤)، وقد شاعت حتى صارت كالمثل في تلك المعاملة اللينة الرقيقة (٥). ومن الألفاظ

---

(١) وكذلك ورد في موضع آخر وهو: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٥].

(٢) ينظر: (زهرة التفاسير: ٦/ ٤١١٢).

(٣) ينظر: (تفسير الشعراوي (الخواطر): ١٣/ ٧٧٧٠).

(٤) والاستعارة هي: استعمال اللفظ في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. ينظر: (أسرار البلاغة: ٣١؛ مفتاح العلوم: ٣٨٤؛ البلاغة الصافية: ٧٥). أما الاستعارة المكنية، فهي ما حذف فيها المستعار منه (المشبه به)، ورمز إليه بشيء من لوازمه. (جواهر البلاغة: ٢٦٤؛ ٢٦٤).

(٥) ينظر: (التحرير والتنوير: ١٤/ ٨٣).

المستخدمة للتعبير عن التَّسامح: الصفح، وقد ورد اللفظ في مواضع، منها: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحِجْر: ٨٥]. والصفح الجميل: ترك المؤاخذة على الذنب، وإغضاء الطرف عن مرتكبه بدون معاتبة، أي: فاصفح عن هؤلاء المكذبين لك صفحًا جميلًا، لا عتاب معه، ولا حزن، ولا غضب، حتى يحكم الله بينك وبينه[1]. بالنظر في تلك الآيات الكريمات نجد القرآن يحث المسلمين كي يجعلوا التَّسامح خلقهم الرفيع، وقانون حياتهم الذي ينبغي الالتزام به وعدم الحياد عنه، ويتجلى مبدأ التَّسامح بأبهى صورة مشرقة في الحرب، فالله سبحانه يأمر نبيه ورسوله ﷺ بالميل إلى الصلح والسلم، وترك الحرب بشرط واحد فقط، ألا وهو أن يترك العدو الحرب، وهذا ما تضمنه قوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأَنفَال: ٦١].

هنا نرى من المفسرين من ذهب إلى نسخ الآية، خلافاً للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي ربط الأمر بالسياسة الشرعية، فجعله موقوفًا على ما يرى الإمام فيه صلاح الإسلام وعزَّة المسلمين، من حرب أو سلم، وليس القتال حلًّا وحيدًا أو حتمًا، وكذلك الهدنة ليست بحتم أبدًا[2]. وهو ما يرجحه الباحث لموافقته قواعد الإسلام الكلية التي إنما استنبطت من الآيات القرآنية المحكمة والسنن الصحيحة الصريحة، وهي قد خولت الإمام بالنظر في مصالح المسلمين. وقد بيَّن الشيخ الشعراوي فلسفة الإسلام في الحرب، بأن الله ﷻ يريد تنبيه المؤمنين إلى أن قوتهم واستعدادهم الحربي لا ينبغي أن يكونا وسيلة وأداة للطغيان، ولا للقتال لمجرد القتال؛

فلذا نبه إلى أنهم إن مالوا إلى السلم فلا تخالفهم بالإصرار على الحرب؛ فالدين هدفه سلام المجتمع، والإسلام لم ينتشر بالقوة ولن ينتشر بها، بل إنما ينتشر

(١) ينظر: (التفسير الوسيط للقرآن الكريم، طنطاوي: ٨/ ٧٥).

(٢) ينظر: (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري: ٢/ ٢٣٣).

بالإقناع والحكمة، فلا ضرورة للحرب في نشر الإسلام؛ لأنه هو دين الحق الذي يقنع الناس بقوة حجته، ويجذب قلوبهم بسماحته، وكل ذلك لشحن مدى قوة الإيمان؛ لكي نكون على أتم الاستعداد لمواجهة الكافرين، ومن دون أن تسوقنا القوة إلى البطر، أو تقودنا إلى مجاوزة الحد، فإن مالوا إلى السلم، ملنا إليه؛ لأن الله ﷻ يريد سلامة المجتمع الإنساني (١).

وقد ورد الأمر بالتيسير المتضمن النهي عن الإحراج والتعسير في مواضع عدة في كتاب الله ﷻ: من ذلك قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وقوله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]. وتوالت الأوامر برفع الحرج عن كاهل المكلفين في عدة مواضع، منها وقوله ﷻ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المَائِـدَة: ٦].

يستخلص ممَّا تقدَّم: أنَّ القرآن العزيز في كل المناسبات قد قدَّم التَّسامح دائمًا مقرونًا بالعدل والاستقامة والإنصاف، ورفع الحيف والضيم والجور والظلم والإذلال،؛ لأنَّ التَّسامح يخرج عن مفهومه المعروف حين تترك العدالة، فلا يسمَّى تسامحًا عندئذ، بل يسمَّى استسلامًا؛ يقود إلى تضييع الحقوق، وإفشاء الظلم، وفسح المجال وإتاحته لانتشار الجرائم، وبث الفوضى، وتفتيت قيم المجتمع، وزعزعة كيانه وأمن أفراده، فالجريمة لا تفتح فمها عبثًا من غير مبرِّر ولا سبب، بل إنَّما لا بدَّ من رادع وازع قويٍّ يوقف ضعاف النفوس عند حدودهم التي ينبغي ألا يتجاوزوها، حتى لا تسوِّل لهم أنفسهم الدَّنيئة باستغلال الفرد أو المجتمع.

المطلب الثاني: فضل التَّسامح في السنة النبوية المشرفة:

السنة هي مبيِّنةٌ لما أجمل القرآن، ومفسرة له، قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النَّحل: ٤٤]. وقال أيضًا:

(١) ينظر: (الخواطر: ٨/ ٤٧٨٣- ٤٧٨٤).

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النِّسَاء: ١١٣].
وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأَحْزَاب: ٣٤].
فالذكر والحكمة هما السنة المبينة للقرآن (١).

وقد ورد في الحديث الشريف الذي مر ذكره: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى»، ففيه الحضُّ على السَّماحة وحسن المعاملة)،

فالمال معالي الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة، والحث على الرِّقَّة في البيع؛ وذلك سبب إلى وجود البركة فيه؛ لأن النَّبيّ ﷺ لا يحضّ أمتّه إلا على ما فيه النّفع لهم في دنياهم وأخراهم، فأما فضل ذلك في الآخرة: فقد دعا ﷺ بالرَّحمة لمن فعل ذلك، فمن أحبَّ أن تناله بركة دعوة النبي ﷺ فليقتدِ بهذا الحديث وليعمل به (٢)، قال الطيبي (ت: ٧٤٣هـ): رتَّب المحبَّة عليه ليدلَّ على السُّهولة. والتَّسامح في التعامل؛ سبب لاستحقاق المحبَّة ولكونه أهلاً للرَّحمة، وفيه فضل المسامحة وعدم احتقار شيء من أعمال الخير، فلعلّها تكون سببًا لمحبَّة الله التي هي سبب للسَّعادة الأبديَّة (٣). فالسَّماحة في مباشرة المعاملة، وفي القضاء، والاقتضاء، يرجى لصاحبها كل خير: ديني ودنيوي، لدخوله تحت هذا الدُّعاء المبارك الَّذي لا بدَّ من قبوله. وقد شوهد ذلك عيانًا،

فلا يوجد تاجر بهذا الوصف إلا صبّ عليه الرزق صبًّا، ونزلت عليه البركة، وعكسه صاحب المعاسرة والتعسير، وإرهاق المعاملين، والجزاء من جنس العمل؛ فجزاء التَّيسيرِ: التَّيسيرُ (٤).

---

(١) ينظر: (تفسير النسفي: ١/ ١٣١)؛ (شرح مقدمة التفسير لابن تيمية: ١٢٧).
(٢) ينظر: (شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٦/ ٢١٠)، (عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ١١/ ١٨٩).
(٣) ينظر: (شرح الزرقاني على الموطأ: ٣/ ٥١٢).
(٤) ينظر: (بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار: ١٠٧).

وقيل لرسول الله ﷺ: أَي الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: «الحنيفية السَّمحة». والحنيفية هي الإسلام؛ لما أخرج ابن المنذر عن السُّدِّي، قال: الحنيف: المسلم [(١)]، والجمع الحنفاء؛ لأنه قد تحنف عن الأديان، مائلًا إلى الحق، قال ﷻ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأَنْعَام: ٧٩]، وقال: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحَج: ٣٠ - ٣١] [(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: قال: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا» [(٣)]. وقال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ، وَالرَّوحةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» [(٤)].

وفي رواية بصيغة التوكيد اللفظي: «يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ دِينَ اللَّهِ فِي يُسْرٍ. يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ دِينَ اللَّهِ فِي يُسْرٍ» [(٥)]. والنَّبِيَّ ﷺ عندما بعث الصحابيين؛ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ﷺ إلى اليمن قال لهما: «يَسِّرَا، وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا، وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا، وَلَا تَخْتَلِفَا» [(٦)]،

---

(١) ينظر: (الحاوي للفتاوي: ٢/ ١٤٤).

(٢) ينظر: (غريب الحديث: ١/ ٢٩١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية: برقم: (١٤٧٨).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر: برقم: (٣٩).

(٥) المعجم الكبير: (١/ ٦٢)، مسند الإمام أحمد: رقم (٢٠٦٨٨)، مسند أبي يعلى، مسند عبد الله بن الزبير ﷺ، حديث عُروة الفُقَيْميّ: برقم: (٦٨٦٣). وقد حسَّن إسناده المحقّق: حسين سليم أسد.

(٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع في الحرب: برقم: (٣٠٣٨)؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير، وترك التنفير: برقم: (١٧٣٣).

وفي رواية تدل على العموم وهي: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ» (١).

وقال الإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) ﷺ: إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأنه قد يفعلهما في وقتين، فلو اقتصر على "يسروا"، لصدق ذلك على من يسَّر مرَّةً أو مرَّاتٍ وعسَّر في معظم الحالات، فإذا قال ولا تعسِّروا، انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب، وكذا يقال في يَسِّرَا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا،

لأنهما قد يتطاوعان في وقت ويختلفان في وقت، وقد يتطاوعان في شيء ويختلفان في شيء (٢).

وقال الطيبي ﷺ: هو من باب المقابلة المعنوية؛ لأن الحقيقية أن يقال: بشِّرا ولا تنذرا، وآنسا ولا تنفِّرا. فجمع بينهما ليعم البشارة، والنذارة، والتأنيس، والتنفير (٣).

فيما سبق تبين لنا مشروعية التَّسامح في الكتاب والسنة.

أما مشروعية التَّسامح في الإجماع: فقد أجمعت الأمة المحمَّدية على فضل التَّسامح، ولم يرد ما يخالف ذلك ممن يعتد بعلمه في تأريخ الإسلام.

وإن التسامح في ديننا أمر مندوب باتفاق العلماء،

وليس واجبًا على من له حقّ أن يسامح، فهو مخير إن شاء عفا، وإن شاء استردّ حقوقه كلها كما أذن بذلك الشرع الحنيف.

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه: برقم: (٧٥٧)؛ مسند الإمام أحمد: برقم: (٢٥٥٤). وصحَّح الشيخ أحمد شاكر: إسناده في هامش المسند، من حديث عن ابن عباس.

(٢) ينظر: (شرح النووي على صحيح مسلم: ١٢/ ٤١).

(٣) ينظر: (فتح الباري شرح صحيح البخاري للعسقلاني: ٨/ ٦١).

المبحث الثاني: واقعية سماحة الإسلام:

عُرِفَ رسول الله ﷺ بسماحته وبالرفق والرأفة والحنان والحلم وحسن الخلق والعفو والصفح ولين القول وخفض الجناح والعطف والتواضع. ومن أبرز ما امتاز به النبيّ الكريم ﷺ التيسير، فعن عَائِشَة رضي الله عنها وعن أبيها، أنها قالت: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا(١).

ولما سئلت عن خُلُقُهِ ﷺ قالت: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ (٢).

نعم إن حياة النبي ﷺ كانت كلها سماحةً وتيسيرًا، ففي يوم الفتح؛ دخل مكة منتصرًا بيده جميع السلطات، وآلاف السيوف تصغي إليه وتنصت إلى كلمة تخرج من فيه الطاهر لتفعل فعلتها، لتقطع رؤوسًا – إن أراد ذلك –، لكنه ﷺ لم يفعل شيئًا، بل إنَّ غاية ما فعله أنْ أعلن العفو العام، فأطلق سراحهم، في حادثة لم تسبق في التأريخ، وقد عرفوا بالطلقاء والعتقاء، وسمي ذلك الصُّلح فتحًا لاشتراكهما في الظُّهور والغلبة على المشركين، فإنَّهم ما سألوا الصُّلح إلَّا بعد أن ظهر المسلمون عليهم غالبين(٣). وعن هذه الهدنة يقول ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) رحمه الله: "إنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجا " (٤).

فقد ظهرت غلبة المسلمين على المشركين في مواطن كثيرة.. منها: بدر والأحزاب، فالمسلمون ظاهرون عليهم دائمًا، وكان ظهور المسلمين عليهم في هذه العمرة بالسياسة الحكمية والمسالمة العظيمة، فقد بان في هذه العمرة عفو الرسول ﷺ وصفحه عن الأعداء؛ حيث إن قريشًا المشركة (كانوا بعثوا أربعين

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ: برقم: (٣٥٦٠)؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، برقم: (٢٣٢٧).

(٢) مسند الإمام أحمد: برقم: (٢٥٣٠٢). وصحَّحه شعيب الأرناؤوط.

(٣) ينظر: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي: ١٣/ ٢٣٩).

(٤) (زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم: ٣/ ٢٧٥).

أو خمسين رجلًا منهم، وأمروهم أن يطيفوا بمعسكر رسول الله ﷺ، ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا، فأُخِذُوا أخذًا، فأُتِيَ بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلَّى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل) [(١)]. ومع ذلك أطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يسمون "العتقاء"، وإليهم ينسب أولئك "العتقيّون" [(٢)].

إنَّ الواقعية في التَّسامح الإسلامي تبدو في خصائص ومزايا، هي: الحنيفية، والوسطية والاستقامة، والسَّلام الدائم، ورعاية حقوق الإنسان.

وتفصيله فيما يأتي:

المطلب الأوَّل: الحنيفية:

قال الله ﷻ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأَنْعَام: ٧٩]. وقد وردت لفظة "حنيفًا" في القرآن الكريم في عشرة مواضع، منها: آيات مكية، وأخرى مدنية، نصَّ في بعضها على إبراهيم عليه السلام، وهو على الحنيفية. ووردت لفظة "حنفاء" في سورتي الحج والبينة المدنيتين. وإنَّ أصل الحنف: الميل من الضلال إلى الاستقامة، وضده الجنف [(٣)]. ويشير الدكتور جواد علي إلى أن تلك اللفظة أطلقت على "المنشقين" عن عبادة قومهم الخارجين عليها، كما أطلق أهل مكة على النبي ﷺ وعلى أتباعه "الصابئ" و "الصباة"، فصارت علمًا على من تنكَّر لعبادة قومه، وخرج على الأصنام؛ لذا نجد الإسلام يطلقها في بادئ الأمر على نابذي عبادة الأصنام، المنسوبين إلى "دين إبراهيم" عليه السلام. ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام؛ لذا صارت مدحًا لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة، لا ذماً،

(١) (السيرة النبوية: ٢/ ٣١٤؛ الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصادق عرجون: ١/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: (الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر: ١٩٤).

(٣) ينظر: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١١/ ٤٠).

والحق لا ذم فيها، فهي ثناء وإشادة، لكن أهل الباطل أمزجتهم مقلوبة. ويفهم من القرآن الكريم أن الحنفاء هم رافضو عبادة الأصنام، ولم يشركوا، ودانوا بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى، فلم يكونوا منهم، متأسِّين في ذلك بإبراهيم عليه السلام.

ويلاحظ أن لفظة "مسلم" استعملت في مرادف لفظة "الحنيف"،

وإن إبراهيم عليه السلام هو أول المسلمين. وقد وصف الإسلام بأنه دين الله الحنيف، وأن الشريعة الإسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة، وذلك تميزاً لها عن الرهبانية المتعصبة (١).

وقد أثارت هذه الكلمة نوع تذبذب لدى السُّعاة للاستدراك على كتاب الله؛ لأن معنى الحنيف حسِّيًّا: مائل الساقين، الذي ترى في رِجلْه انحناء إلى الداخل، يقال: في قدمه حنف، أي ميل،

فالمعنى: فأقم وجهك للدين مائلًا؛ لأن الرسول ﷺ جاء مصلحًا ليصلح مجتمعًا فاسدًا منحرفًا يدين بالشرك والوثنية،

فالمعنى: مائلًا عن هذا الفساد والشرك والوثنية التي جاء النَّبيّ ﷺ لهدمها والقضاء عليها،

ومعنى: مال عن الباطل: ذهب إلى الحق. وقال حنيفًا؛

لأن الرسل لا تأتي إلا على فسادٍ عام، شَمِلَ النَّاس كلهم جميعًا (٢).

وسمي النبي إبراهيم عليه السلام بهذا؛

لأنه قد حنف عن عبادة أبيه وقومه في عبادتهم الأصنام إلى عبادة الله تعالى..

ومعنى حنف: مال عن ذلك، وعدل (٣).

---

(١) ينظر: (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (١٢/ ٣١- ٣٢).

(٢) ينظر: (الخواطر: ١٨/ ١١٤١٤).

(٣) ينظر: (غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب: ١٨٤)؛ (التحرير والتنوير: ١١/ ٣٠٣).

المطلب الثاني: الوسطية والاستقامة:

أولاً: الوسطية: الإسلام دين الوسطية والاعتدال البعيد النَّائي عن كل غلو وتطرف، والنَّاهي عنهما. قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣].

ثانياً: الاستقامة:

في القرآن نصوص تضمنت لفظ الاستقامة، منها: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هُود: ١١٢]. والاستقامة: ثبات على الدين، واستمرار بالعبادات والطاعات من غير انقطاع أو تلكؤ فيها، ولذلك فأجر المستقيمين عظيم، كما أخبرت آيتا فصلت والأحقاف. ولئن شئت مثالًا على الاستقامة فانظر إلى رسول الله ﷺ كيف رد على زعماء قريش حين طلبوا منه تركهم وشأنهم مع أصنامهم، فكان جوابه ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي مَا تَرَكْتُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِي طَلَبِهِ» (١). ومن استقامته ﷺ بقاؤه ملازمًا مع أهل بيته على معيشة الكفاف حتى بعد أن أصاب الناس يسار وغنى وثراء.

المطلب الثالث: السَّلام الدائم:

الإسلام سلم كله، وأمن وطمأنينة للعالم أجمع، وفي كتاب أبي الحسن الندوي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" أعظم البراهين والأدلة على الخسارة الكبرى التي منيت بها أمم الأرض جميعًا حينما عزلوه عن أماكن صنع القرار، فعادت شريعة الغاب تفتك بالشعوب المغلوبة في الوطن العربي وفي قارة أفريقيا. أجل إن الإسلام نشر السَّلام في العالم منذ فجر ولادته، فالتَّحيَّة في هذا الدين تكون بالسَّلام لمن يتلقى التَّحيَّة ومن يلقيها، والتَّحيَّة ليست حصرًا ولا حكرًا للمعارف، ففي الحديث: «تقرأ السَّلام على مَن عرفتَ ومن لم

(١) (السيرة النبوية: ١/ ٢٦٦؛ دلائل النبوة: برقم: (٢٦٥)، (١٩٧).

تعرفْ» [(١)]، وهو ﷺ يعلم صحبه طريق المحبَّة بقوله: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» [(٢)].

إن الشَّارع الحكيم فرض رد السَّلام مع تفضيل الرَّد الحسن بتقديمه، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النِّسَاء: ٨٦]. وجعل لفاعل ذلك أجرًا عظيمًا، فمن قال عند الرَّد: (وعليكم السَّلام). فله عشر حسنات، ومن زاد (ورحمة الله). زيد في أجره عشر حسنات أخر، ومن أكمل الرَّد بقوله: (وبركاته). استحق الثلاثين حسنة.

المطلب الرابع: رعاية حقوق الإنسان:

ضمن الإسلام حقوق الإنسان قبل (١٤) قرنًا من الزمان ضمانًا كاملًا، وجعل تلك الحقوق خطًّا أحمر لا يجوز لأحد تجاوزه ولا التَّعدي عليه، وهو مظهر آخر من مظاهر التَّسامح في هذا الدين الحليم. والشَّهيد يغفر له كلُّ شيءٍ سوى حقوق العباد، فالله ﷻ يغفر له كلَّ شيء باستثناء حقٍّ لأحد الخلق لم يستوفه، فيبقى رهينًا مشغول الذِّمة بذلك؛ فالنَّبيّ ﷺ ترك الصَّلاة على جنازة؛ لأن الميِّت عليه ديناران قرضًا، فتكفَّل صحابيّ أن يقضي عنه الدَّين فصلَّى. والمسلم وغيره سواء في الحقوق؛ لأن النَّبيّ ﷺ كتب دستورًا فيه حقوق يهود المدينة، أول دستور في التَّأريخ يرعى حقوق الغير، وهو ميثاق التَّعايش السِّلمي. ومن عجيب أدبه ﷺ أنه لم يضرب من النساء والخدم أحدًا،

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: إطعام الطعام من الإسلام: برقم: (١٢)؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل: برقم: (٣٩).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون: برقم: (٥٤).

فعن أمِّ المؤمنين عائشة ﵂، أنَّها قالت: «مَا ضرب رَسُول الله ﷺ شَيْئا قطّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَة وَلَا خَادِمًا [(١)].

وقد خدم النبي ﷺ أنس بن مالك ﵁ تسع سنين، ثم قال عن ذلك: «خَدَمْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالحَضَرِ، مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا» [(٢)]؟ ولندع فعله مع خادمه إلى: من قد ظلمه فعلًا، وآذاه جسديًّا ونفسيًّا. فقد جاءه ﷺ زيد بن سَعْنَةَ قبل إسلامه يتقاضاه دينًا عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثمَّ قال: إِنَّكُمْ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مُطْلٌ. فانتهره عمر، وشدَّد له في القول، والنبي ﷺ يتبسَّم، قائلا لعمر: «أنا وَهُوَ كُنَّا إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ أَحْوَجُ يَا عُمَرُ: تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْقَضَاءِ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّقَاضِي، ثُمَّ قَالَ لَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثٌ». وأمر عمر يَقْضِيهِ مَالَهُ، وَيَزِيدُهُ عِشْرِينَ صَاعًا لِمَا رَوَّعَهُ، فكان سبب إسلامه [(٣)].

إن عمر الذي همَّ بقتل ذلك اليهودي مرَّ بشيخ ذمِّيّ يسأل على الأبواب، فيقول: «ما أنصفناك! أنْ كنَّا أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك في كبرك» [(٤)]! ثم فرض له من بيت المال راتبًا. ولقد صالح خالد بن الوليد ﵁ أهل الحيرة، وكتب كتاب الصلح الذي جاء فيه: "وَجَعَلْتُ لَهُمْ أَيُّمَا

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح: برقم: (٢٣٢٨).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، بابباب استخدام اليتيم في السفر والحضر: برقم: (٢٧٦٨)؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا: برقم: (٢٣٠٩).

(٣) ينظر: المعجم الكبير: برقم: (٥١٤٧). ووثق الهيثمي رجاله في: مجمع الزوائد: برقم: (١٣٨٩٩).

(٤) (كتاب الأموال: ٤٦)؛ (أحكام أهل الذمة: ١/ ١٤٤).

شَيْخٍ ضَعُفَ عَنِ الْعَمَلِ، أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ مِنَ الآفَاتِ، أَوْ كَانَ غَنِيا فَافْتَقَرَ، وَصَارَ أَهْلُ دِينِهِ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ طَرَحْتُ جِزْيَتَهُ، وَعِيلَ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ " [١]. بل إنَّ نصارى الشَّام في صدر الإسلام كتبوا سنة (١٣هـ) إلى أبى عبيدة بن الجراح ﷺ يقولون: لَوَلَايَتُكم وعدلُكم أحبُّ إلينا مما كنَّا فيه، ولندفعنَّ جندَ هرقلَ عن المدينة [٢]. وكانت اليهودية تساس بشريعة فيها القسوة كما أخبرنا الله ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المَائِدَة: ٤٥]. في حين أن النصرانية اتخذت الرهبانية مع التَّسامح المطلق، يقول عيسى ﷺ: "من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا" [٣]، ثم جاء الإسلام ليشرع ما يوافق الفطرة الإنسانية، فالقسوة في موضعها، والعفو في موضعه، والعفو مقدَّم على الثَّأر والقصاص. قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإِسْرَاء: ٣٣]. ولئن عوقب الإنسان فله خياران: إما أن يأخذ بحقه، فيقتصَّ ممن آذاه وظلمه بالمثل تمامًا، فذا حقه؛ الله أعطاه إياه، أو يعفو ويسامح ابتغاء مرضاة الله! فهذا أيضًا حقُّه يجوز له أن يفعل، لكن ليس فرضًا واجبًا. أما أيهما خير وأفضل فلا شكَّ أن الثَّاني أفضل؛ لأنَّه قد يفضل أن يقتص من خصمه وغريمه لكن يسرف في العقوبة؛ لأن اليد ليس لها مقياس ثابت ولا ميزان دقيق، عندئذٍ يقع في إشكال جديد ومصيبة ثانية. وأما من طابت نفسه بالعفو فيكسب محبَّة الخصم، ومحبَّة النَّاس وتقديرهم غالبًا، فضلا عن محبَّة الله ﷻ. ومن تلك الحقوق حقوق المرأة التي كرمها الإسلام، ففي القرآن سورة كاملة طويلة جاءت بأحكام كثيرة عنوانها البارز العريض: "سورة النساء"،

(١) (الخراج: ١٥٧- ١٥٨).

(٢) ينظر: (فتوح البلدان: ١٣٩).

(٣) (إنجيل متى: ٥/ ٤٠).

تقول الدكتورة السيدة زينب إيفيلين كوبولد Evelyn Cobold: كان رسول الإسلام يعرف أن المرأة ستجد طريقها بجوار الرجل يومًا؛ لذا آثر أن تكون متدينة، لها لباس معين، حتى تقي نفسها شر كشف العورات [١]، وما بعده. فالمرأة في التصور الإسلامي لها رتبة أخلاقية فوق الرجولة، ألا وهي رتبة المروءة [٢]؛ لأن لفظ المرأة مشتق من لفظ المرء، ومنه اشتق لفظ امرؤ، وهو مسمى الرجل.

ثم إن الحقوق الإنسانية التي أشرنا إليها لا بد أن تتضمن ما يأتي:

-كرامة الإنسان:

كرم الله الإنسان وفضله على كثير من الخلق، ومن مظاهر تكريمه تخصيص سورة باسم "الإنسان"، يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسْرَاء: ٧٠]. كرمه جسدًا وروحًا؛ فالجسد في غاية البراعة الهندسيّة، أحسن تقويم وتصميم، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التّين: ٤].

أما روحه فيكفي أن الرّوح من أمر الله ﷻ القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسْرَاء: ٨٥]، والقائل أيضًا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحِجْر: ٢٩؛ ص: ٧٢]. ثم إن من كرامة الإنسان النهي عن قتل النفس من غير سبب: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائِـدَة: ٣٢].

وقال سليمان ﷺ: «منْ هَدَمَ بُنْيانَ رَبِّهِ فهُو مَلْعُون» [٣].

---

(١) ينظر: (أروع ما قيل في النجاح مع حكم وتراجم بعض المشاهير: ١٨٣٣).

(٢) ينظر: (الحوار أفقا الفكر: ١٢٤).

(٣) (النهاية في غريب الحديث والأثير: ١/ ١٥٨). والأثر مع غرابته معناه صحيح موافق لقواعد الإسلام.

ومن مظاهر سماحة الإسلام الاهتداء بما جاء في كل من التوراة والإنجيل من مواعظ وحكم بلا تعصب. "فالإسلام يعترف بالتوراة ورسالة موسى عليه السلام، ويقر بالإنجيل ونبوة عيسى عليه السلام، وطهارة مريم، وقد تسامح المسلمون كل التسامح مع أهل الكتاب، وعاملوهم معاملة عادلة إنسانية تدل على النبل والمروءة في الماضي، ولا يزالون يعاملونهم معاملة الإخوة والأصدقاء في الحاضر" (١)، لكنهم بخلاف ذلك. يقول رينيه ديكارت René Descartes: "إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم لم تكن متوازنة من البداية! فقد اعترف الإسلام بالديانات السماوية، واعتبر الإيمان بأنبيائها جزءًا من سلامة اعتقاد المسلم، في حين أن أهل هذه الأديان لم يعترفوا بالإسلام، ولم يهادنوه يومًا" (٢).

فالدين واحد إسلاميًّا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٩]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٢]. و «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ» (٣).

والنُّبوَّة بيت اكتمل بناؤه بآخر لبنة تمثلت في محمَّد ﷺ لقوله: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ، وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاس يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هذِهِ اللَّبِنَةُ؟! فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» (٤)؛

---

(١) (روح الإسلام: ٩).

(٢) (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح: ٢٦).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله ...: برقم (٣٤٤٢)؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ: برقم: (٢٣٦٥).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ: برقم: (٣٥٣٥)؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين: برقم: (٢٢٨٦).

لذلك لا يجد المسلم غضاضةً في دينه إن آمن بالأنبياء عليهم السلام وأحبَّهم، بل ذلك من أركان إيمانه. وثمَّة حادث عجيب غريب لطيف، عن قاض مسيحي حكم على رجل مسلم؛ لأنه ضرب يهوديًّا لتطاوله على مقام أم عيسى في ولادته. ولنقارن بين موقف الإجلال الذي يقفه المسلمون من عيسى عليه السلام وبين ما صنعه ولا يزال يصنعه الأوربيون من سيرة محمَّد ﷺ[1]. إن كرامة الإنسان التي أثبتها القرآن الكريم هي حجر الزاوية في التَّسامح الذي هو من مزايا الإسلام التي لا مثيل لها، وهو دليل قاطع على إنسانية الإسلام وعالميته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لذا قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ» [2].

-حرية الإنسان:

الحريَّة: هي قدرة الإنسان على فعل الشيء أو تركه بإرادته الذاتية، وهي ملكة خاصة يتمتع بها كل إنسان عاقل، ويصدر بها أفعاله، بعيدًا عن سيطرة الآخرين؛ لأنه ليس مملوكًا لأحد، لا في نفسه، ولا في بلده، ولا في قومه، ولا في أمته [3].

وقد أتاح الإسلام للإنسان حرية التفكير، وحثَّه على استخدام عقله في سبيل درء المفاسد عنه وجلب المصالح إليه. فله الخيار المطلق والإرادة الكاملة في التَّفكير بالمعتقد والأفكار بسائر ضروبها، فالإنسان تبعًا لعقله وهو من أعظم نعم الله تعالى يؤمن أو يكفر، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكَهْف: ٢٩] والله العزيز الغالب لم يجبر أحدًا على

(١) ينظر: (أوروبا والإسلام: ١٦٢- ١٦٣).

(٢) مسند الدارمي: برقم: (١٥).

(٣) ينظر: (العولمة وتأثيرها على النظم القانونية في الأقطار العربية: دراسة مقارنة: ٥٢٧).

الإسلام، بل خيَّره في ذلك، قال الله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

فله الحريَّة الكاملة فيما يعتقد من الأفكار تشريفًا من الله وتمييزًا له عن مخلوقاته الأخرى التي لا إرادة لها ولا اختيار، وأمره بالاهتداء إلى الحقائق بحسب ما يقررّه العقل في نطاق قابلياته وإن كانت محدودة، ولا يعاقب الإنسان إلا إذا ترك حكم العقل الرَّشيد إلى الأهواء، بدليل رفع الحساب عند غياب العقل، فالمجنون والصبيّ الصغير والنَّائم لا حساب عليهم ولا تكليف، بدليل قوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون المغلوب على عقله، وعن النَّائم حتى يستيقظ، وعن الصبيِّ حتى يحتلم» [(١)]؛ ولذا صار مثلًا على الألسنة يرددها الناس دائما: "إذا سلب ما وهب سقط ما وجب".

ولعل مسك الختام في الحديث عن الحرية أن نستعير مقولة أمير المؤمنين؛ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه التي أصبحت أنشودة طالبي الحريَّة: متى استعبدتم النَّاس، وقد ولدتهم أمهَّاتهم أحرارًا [(٢)]؟!

المطلب الخامس: حقوق الحيوان والنبات:

أولاً:حقوق الحيوان:

أخبرنا رسول الله ﷺ عن رجل دخل الجنَّة، وعن امرأتين واحدة دخلت النَّار، وأخرى دخلت الجنة،

فأما الرجل والمرأة الثانية فقد سقى كل منهما كلبًا أصابه عطش شديد، فشكر الله ﷻ لهما صنيعهما فاستحقا الجنَّة، وأما المرأة الأولى فقد استحقت النَّار؛ لأنَّها أجاعت قطَّة حيث لم تطعمها، بل منعتها من أكل ما في الأرض.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًّا: برقم: (٤٤٠١)؛ المستدرك: برقم: (٩٤٩). وصححه ووافقه الذهبي. ينظر للمزيد: مسند الإمام أحمد: برقم: (٢٤٦٩٤)، (٤١/ ٢٢٤)، هامش (١).

(٢) (الموسوعة في سماحة الإسلام: ١/ ٥٢١).

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يُمِيلُ الإناء للهرَّة حتَّى تَشرب، ثم يتوضأ بما فَضُل منها، فعن قَتادَةَ بنِ عبدِ اللَّه بنِ أبي قَتادَةَ، عن أَبيه

قال: كان أبو قَتادَةَ يُصغِي الإناءَ لِلهِرِّ فيَشرَبُ، ثم يَتَوَضأُ به، فقيلَ له في ذَلِكَ فقالَ: ما صَنَعتُ إلا ما رأَيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَصنَعُ (١).

بل اشتكى للنبي ﷺ جمل أو بعير، فعن يعلى بن مرة قال: كنت جالسًا مع رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ جاء جمل يرغو، حتى ضرب بجرانه بين يديه، ثم ذرفت عيناه، حتّى بلّ ما حوله،

فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول البعير؟ إنه يزعم أن صاحبه يريد نحره»، ثم قال: «ويحك انظر لمن هذا الجمل»؟ فخرجت ألتمس صاحبه، فوجدته لرجل من الأنصار،

فدعوته إليه، فقال: «ما لبعيرك يشكوك، زعم أنك أفنيت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره»؟ قال: صدقت، والذي بعثك بالحق، لقد هممنا البارحة أن ننحره ونقسم لحمه، قال: «فلا تفعل، هبه لي، أو بعنيه»، فقال يا رسول الله، ما لي مال أحبُّ إليَّ منه»، قال: «فاستوصِ به خيرًا»، فقال: لا جَرَمَ، لَا أُكْرِمُ مَالًا لِي كَرَامَتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ،

وفي رواية: أنه وهبه لرسول الله ﷺ فوسمه بسمة الصدقة ثم بعث به) (٢)، وعن سهل بن عمرو أو سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري المعروف بابن الحنظلِيَّة،

---

(١) السنن الكبير للبيهقي: برقم: (١١٧٨). وقال المحقق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الهامش (٢): (أخرجه أحمد: (٢٢٦٣٧). من طريق الحجاج...؛ وذكره الدارقطني في (العلل: ٦/ ١٦٣). عن عبد الله بن أبي قتادة موقوفًا).

(٢) رواه الإمام أحمد والبيهقي من طرق عن يعلى بن مرة. سبل الهدى والرشاد: (٩/ ٥١٤). قال المنذري: وإسناده جيد. ذكره الزرقاني في: (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: ٦/ ٥٤٢). ومعنى يرغو: يصوت فالرغاء صوت البعير والضبع والنَّعامُ وبكاء الصبي كما في تاج العروس: ٣٨/ ١٦٨. بل ورد في الحديث: جَاءَ جَمَلٌ يُخَبِّبُ ...

وَهُوَ من أهل بيعة الرِّضْوَانِ ﷺ قَالَ: مَرَّ رسولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: «اتَّقُوا الله في هذِهِ البَهَائِمِ المعجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً» (١).

ثانياً:حقوق النبات:

دأب الصحابة في التَّواصي على منع قطع الشَّجر المثمر؛ لأنهم تعلموا من المبعوث رحمة للعالمين أن قطع الشَّجر لا يجوز إلَّا لضرورة، حتى في أتون المعارك وبطونها المستعرة.

والغزوات الإسلامية على كثرتها لم تعرف مخالفة لهذا المبدأ. وقد كان رسولنا ﷺ إذا أرسل سرية يوصيهم بالإحسان والتسامح والرحمة بالنساء والضعفاء، ثم تبعه خلفاؤه الراشدون من بعده، فقد أوصى الخليفة أبو بكر ﷺ جيش (بعث) أسامة بقوله:

" إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَدعهُمْ. وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: «لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ" (٢).

أخرجه ابن أبي شيبة في: المصنف في الأحاديث والآثار: برقم (٣١٧٥٣)؛ والإمام أحمد في: المسند: برقم (١٧٥٤٨).

(١) رياض الصالحين: برقم: (٩٦٦). وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح، وقال الأعظمي المعروف بالضياء: رواه أحمد (١٧٦٢٥)، وصحّحه ابن حبان (٥٤٥، ٣٣٩٤). كلاهما من طريق علي بن عبد الله. وإسناده صحيح، ورواه أبو داود (٢٥٤٨)، وصحّحه ابن خزيمة (٢٥٤٥) عن عبد الله بن محمد النفيلي... وهذا إسناد حسن من أجل مسكين بن بكير فإنه حسن الحديث. (الجامع الكامل في الحديث الصحيح الشامل – المرتب على أبواب الفقه: ١١/ ٦٣٦). قلت: الحديث صحيح.

(٢) الموطأ، كتاب: الجهاد، باب: النهي عن قتل النساء والولدان: برقم: (٩١٨).

وما أجمل قول الشاعر في معناه:

وَكَانَـــتْ وَصَـــايَاكَ الـــدَّلِيلَ فَـــلَا تَهْـــدِمُوا دَارًا، وَلَا تَطْعَنُـــوا لِزَحْفِنَـــــــــــــــــــــــا غَـــــــــــــــــــــــدْرًا

وَلَا تَقْطَعُـــوا زَرْعًـــا، وَلَا تُسْـــلِبُوا وَلَا تَقْتُلُـــوا شَـــيْخًا وَلَا أَمَـــةً

فَـــــــــــــــــــتًى، حَـــــــــــــــــــيْرَى

المبحث الثالث: تطبيقات سماحة الإسلام
من خلال أقوال المستشرقين في الإسلام

قال الله ﷻ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾ [سَبَإ: ٦].

استئناسًا بهذا القول الكريم أستعرض جملة من أقوال المستشرقين ممن يحسبون بأنهم من المنصفين للإسلام على الرغم من كفرهم غالبًا، لكن لسبب ما أنصفوا وقالوا الحق، وذكروا ما ذكروا من أقوال منصفة. يقول الأستاذ: كارا د ي فو Carra de Vaux: إن محمَّدا [ﷺ] لم ينظر إلى نفسه كرجل من طبقة أخرى غير طبقات بقيَّة المسلمين، بل إن شعور المساواة والإخاء الذي أسَّسه بين أعضاء الجماعة المسلمة كان يطبَّق تطبيقًا عمليًّا حتَّى على شخصه (١).

ورأى اللورد هيدلي (٢) Rowland George Allanson Headley: أن تعاليم القرآن الكريم قد نفِّذت ومورست في حياة محمَّد [ﷺ] سواء في أيام الاضطهاد، أم في زمن انتصاره، وقد أظهر أشرف الصِّفات الخلقيَّة التي لا يتسنَّى لمخلوق آخر إظهارها، عفا بلا قيد عن كلِّ الذين اضطهدوه وعذَّبوه، وآوى إليه كلَّ الذين كانوا نفوه من مكة، وأغنى فقراءهم، وعفا عن ألدِّ خصومه عندما صارت حياتهم في قبضة يده وتحت رحمته (٣).

وتعد شاعرة الهند ساروجني ندو Sarojini Naidu: الإسلام أول الأديان مناديًا ومطبقًا للديمقراطية، التي تبدأ في المسجد خمس مرات في اليوم الواحد، فيسجد القرويُّ والملك جنبًا إلى جنب، اعترافًا بأنَّ الله أكبر، وقد أبدت

---

(١) ينظر: (آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام: ٥١؛ ٦١؛ الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة: ١٦٥).

(٢) أسلم وسمى نفسه: الشيخ رحمة الله الفاروق. (أوروبا والإسلام: ٧٠). وقيل: سمى نفسه عمر الفاروق.

(٣) ينظر: المرجع نفسه: (٧٠ – ٧١).

دهشتها من هذه الوحدة غير القابلة للتقسيم، والتي جعلت من كلِّ رجل تلقائيًّا أخًا للآخر [١].

والآن إلى أقوال عدد من المستشرقين الذين قتلوا الأديان بحثًا ودراسة وتمحيصًا وتحليلًا ثم استنتجوا نتيجة طيبة تؤيد كلمة المسلمين، وتنصر الإسلام على العالمين. وقد رتبها الباحث في شكل مطالب، وهي:

المطلب الأول: من أقوال الزعماء:

١. وقف أمين عام الأمم المتحدة "أنطونيو غوتيريس António Manuel de Oliveira Guterres: "مخاطباً القمة العربية في البحر الميت، ومشيداً بالآية القرآنية التي تمنح "حق اللجوء السياسي" للمشركين عند المسلمين، وقد ردد الأمين العام غوتيريس هذه الآية في أكثر من محفل دولي [٢]. وقال مؤخرًا: "نحن على بعد أيام من شهر رمضان، ومنذ أكثر من ألف عام ورسالة السلام والتعاطف والتراحم التي جاء بها الإسلام تشكل إلهاما للناس حول العالم، بل إن كلمة الإسلام نفسها مشتقة من جذر كلمة "سلام" ذاته. وحينما كنت أشغل منصب مفوض الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين رأيت سخاء الدول الإسلامية التي فتحت أبوابها للناس الذين أجبروا على الفرار من ديارهم، في حين أغلقت فيه دول أخرى كثيرة حدودها، رأيت تجليًّا معاصراً لما جاء في القرآن الكريم في سورة التوبة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التَّوْبَة: ٦]. فهذه الحماية يجب أن تكفل للمؤمنين وغيرهم على السواء كما ذكر في القرآن الكريم، وهذا تعبير رائع عن مبدأ حماية اللاجئين، قبل قرون من إبرام اتفاقية اللاجئين سنة ١٩٥١م".

(١) ينظر: (مثاليات الإسلام: ١٦٩). نقلا من: (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح: ١٢٠).

(٢) (صحيفة عربي: ٢١)، حسن محمود، القاهرة، الأربعاء، (٧/ جمادى الثانية/ ١٤٤٠هـ = ١٣/ ٢/ ٢٠١٩ م).

٢. نصح الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون Richard Milhous Nixon شعبه – الشعب الأمريكي – بوجوب أو ضرورة التمييز بين أفعال المتطرفين المسلمين – أو المنسوبين إلى الإسلام – وبين الإسلام نفسه، الذي لا يعرف الإرهاب [١].

٣. قال الملك تشارلز الثالث [٢] Charles III" من عظمة الإسلام أن معتنقه سيجد أنه يجمع الأديان السابقة، ويزيد عليها، والمرء لا يحس باحتقار دينه السَّابق؛

لأنَّ الإسلام يوقر سائر الأنبياء السَّابقين لخاتم الأنبياء محمَّد ﷺ، فالنَّبيُّ عيسى وأمُّه مريم عليهما السلام مقدرَّان ومحترمان في الإسلام، وهذا شيء رائع دالٌّ على شموليَّة الإسلام، وأنه خاتم الأديان" [٣].

٤. الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقَّته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهَّدت الطريق، وتخطَّت المصاعب وليس السَّيف [٤].

٥. ورد في كتاب أصدرته الأمم المتحدة– منظمة التربية والثقافة والعلوم "اليونيسكو UNESCO": فيما يخص التسامح، اتسم موقف النبي محمد [ﷺ] ببعد عالمي، وحس قوي بالمساواة والرحمة. ويُنقل عن حديث أن النبي [ﷺ] في إحدى سنوات القحط، أرسل إلى أهل مكة الأوثان مساعدة مالية كبيرة،

---

(١) ينظر: (علماء الغرب يدخلون الإسلام: ١٦٨).

(٢) وملك بريطانيا الجديد اسمه تشارلز فيليب آرثر جورج Charles Philip Arthur George

(٣) (الإسلام نهر يبحث عن مجرى: ١٣– ١٤).

(٤) ينظر: (موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام: ١/ ٣٤٩؛ الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة: ١٧٩). ومن المعلوم أن ابنه هيرالال غاندي أسلم وتسمى بـ "عبد الله غاندي". ينظر: (عظماء أسلموا: ١٩– ٢٠).

مع أنهم كانوا في حالة حرب ضده [١].

المطلب الثاني: من أقوال الأساتذة العلماء:

تقول د. لورا فيشيا فاغليري Laura Veccia Vaglieri: كان محمَّد [ﷺ] لطيفاً، ورحيماً في دعوته هذه حتى مع أعدائه الشخصيين، لقد امتزجت في ذات نفسه العدالة والرَّحمة، وهما اثنان من أنبل الصفات التي يستطيع العقل البشري تصورها، وليس من العسير تأييد هذا بكثير من الأمثلة المنثورة في سيرته [٢]. العطرة ﷺ، وتقول أيضًا: "أعلن الإسلام المساواة بين البشر" [٣]. لكنه ليس إعلانًا فقط أو مجرد إعلان عابر لا قيمة له، فالمفكر المسلم أتيين دينيه Alphonse-Étienne Dinet يقول: "لقد دعا عيسى إلى المساواة والأخوة، أما محمَّد فقد وفق إلى تحقيق المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته" [٤]. وهذا يعني تطبيق المساواة مع التحقيق، لا مجرد دعوة كلامية أو إعلان عابر؛ لذا نجد اعترافًا صريحًا منصفًا من الفيلسوف والفيزيائي الفرنسي رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦- ١٦٥٠) وهو: أن المسلمين يعملون بالرسالتين العيسوية والمحمَّدية، ويبين الفرق بين الفريقين بقوله: "نحن لا نعمل بالثانية، ولو أنصفنا لكنا معهم جنبًا إلى جنب؛ لأن رسالتهم فيها ما يتلاءم مع كل زمان" [٥]؛ لذا نجد الكاتب الأيرلندي جورج برناردشو George

---

(١) بنظر: (التسامح في كلمات: ٧١).

(٢) ينظر: (دفاع عن الإسلام: ٣٨- ٣٩). وهي: المستشرقة الأستاذة في جامعة نابولي (ت: ١٤٠٩ هـ).

(٣) م. ن: (٤٧).

(٤) (محمَّد رسول الله: ١٩؛ ٣٤٣).

(٥) مقالة الطريقة، ديكارت، ترجمة: جميل صليبا. نقلًا عن: (ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح: ٢٦)؛ (البيان في فضل الإسلام ونبيّه العدنان: ١٤٩). ولمثل هذا الرأي ذهب مونتجمري وات، في كتابه: (محمَّد ﷺ في مكة: ١٢).

Bernard Shaw [١] يقول: لقد نادى الإسلام بالحريَّة والاخاء والمساواة، ورسم وسائل تحقيقها، وأقام موازين الحقِّ والعدل والإنصاف، ودعا إلى التَّعاون على البرِّ والخير والإصلاح، كلُّ ذلك في ظلِّ المحبَّة والوئام والسَّلام [٢]؛ ويقول الدكتور محمد غريب: "لو عرف المسيحيون الإسلام وأسلموا لأكرموا المسيح عليه السلام أكثر" [٣].

– يقول مفجر الثورة العلمية الفيزيائية في العصر الحديث ألبرت آينشتاين Albert Einstein: إنَّ الإسلام لا يزال حتى الآن هو القوَّة التي وجدت لإحلال السَّلام [٤].

– يندهش الأستاذ (هـ. ج. ويلز Wales): مما ورد في الفقرة الأخيرة من حجة الوداع، حيث جعل النبي ﷺ الزنجي المؤمن عِدْلًا للخليفة؛ لذا يرى أن تلك الكلمة أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، فإنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، وقد أنشأت مجتمعًا أكثر تحرُّرًا من أي مجتمع آخر سبقه [٥]. ثم يعلق على الخطبة قائلًا: فهذا "الإلحاح على الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية، إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى، بيد أن ليس الفضيلة الوحيدة فيه... كان دينا مليئا بروح الرفق والسماحة والإخوة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم" [٦].

---

(١) له مؤلف أسماه (محمَّد)، وقد أحرقته السلطة البريطانية. ينظر: (الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة: ١٨٣). ويدعون حرية التعبير، في الوقت الذي يصادرون فيه فكر العلماء والمفكرين والفلاسفة والكتاب والأدباء والشعراء.

(٢) ينظر: (آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام: ٢١– ٢٢).

(٣) مقالة الطريقة، ديكارت. نقلًا عن: (ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح: ٢٦).

(٤) (الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة: ١٧١).

(٥) (معالم تاريخ الإنسانية: ٣/ ٨٠١– ٨٠٢).

(٦) (معالم تاريخ الإنسانية: ٣/ ٨٠٣).

– قال مؤلف كتاب قصة الحضارة؛ "ويل ديورانت" William James Durant: لقد كان [محمَّد ﷺ] لطيفًا مع العظماء، بشوشًا في أوجه الضُّعفاء، عظيمًا مهيبًا أمام المتعاظمين المتكبِّرين، متسامحًا مع أعوانه، يشترك في تشييع كلِّ جنازة تمرُّ به، ولم يتظاهر قطُّ بأبَّهة السُّلطان. وكان يرفض أن يوجَّه إليه شيء من التَّعظيم الخاص، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل (١).

– أطلق البروفسور راما كريشنا راو Rama Krishna Rao في كتابه "محمد نبي الإسلام" على رسول الله ﷺ لقب ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحرر النساء (٢).

– وقد أدهش عالم الأجناس "د. ل. ملما": فضلًا عن الوحدانية والصلة المباشرة بين الله ﷻ والخلق والتسامح الإسلامي أدهشه مبدأ الأخوة في الإسلام، إذ ينفرد الإسلام بين الأديان كله بأنه الدين الوحيد المطبق لمبدأ الأخوة والمساواة عمليًا بين الناس، يتجلى ذلك في لباس الحج والإحرام (٣).

– يعتقد د. لويس يونغ Lewis Young أن ثمة أشياء كثيرة، لا يزال على الغرب أن يتعلَّمها من الحضارة الإسلاميَّة، منها نظرة العرب المتسامحة، وعدم تمييزهم فروق الدِّين والعرق واللَّون (٤).

– قالت ليدي زينب إيفيلين كوبولد Eveline Kobold: "مع أن محمَّداً [ﷺ] كان سيد الجزيرة العربية، فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفياً بأنه رسول الله [ﷺ]، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه، ويصلح حذاءه بيده، كريماً بارًّا كأنه الريح

(١) ينظر: (قصة الحضارة: ١٣/ ٤٥).

(٢) Mohamed the prophet or Islam: 20

(٣) ينظر: (ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح: ٦١؛ القرآن يقوم وحده: ١٦٤).

(٤) ينظر: (قالوا عن الإسلام: ٣٢٦).

السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحيان قليلاً لا يكاد يكفيه" [١].

- **ومن أقوال الطبيب والمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون** [٢] (أو لوبان) Gustave Le Bon: -

١- الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم.

٢- إن العرب هم أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين".

٣- لقد كان محمَّد [ﷺ] ذا أخلاق عالية، وحكمة ورقة قلب، ورأفة ورحمة، وصدق وأمانة".

٤- إن التسامح الديني كان مطلقًا في دور ازدهار حضارة العرب، ونشير إلى قصة أحد علماء العرب الذي كان يحضر ببغداد دروساً كثيرة في الفلسفة، يشترك فيها أناس من: اليهود، والنصارى، والمجوس، والزنادقة، فيسمع كل واحد منهم باحترام، ولا يطلب منه إلا الأدلة العقلية، لا الأدلة المأخوذة من أي كتاب ديني كان، فتسامحٌ مثل هذا هو مما لم تصل إليه أوربا" [٣]. حتى الآن، ولن تصله أبدًا.

المطلب الثالث: من أقوال الفلاسفة:

- يبين الفيلسوف الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته Johann Wolfgang von Goethe بكلام جميل سماحة الإسلام واتصاف الرسول الكريم ﷺ

(١) (البحث عن الله: ٦٧)؛ وقريبًا من هذا يرى الدكتور نظمي لوقا في: (محمَّد الرسالة والرسول: ١٨٠).

(٢) ينظر: (حضارة العرب: ٢٦؛ ٢٧٦؛ ٤٣٠؛ ٥٦٦؛ ٥٩١).

(٣) ينظر: (حضارة العرب: ١٢٦؛ ٥٧٠).

بها، ويؤكد على أن التسامح بمعناه الإلهي غرسه رسول الإسلام ﷺ في نفوس المسلمين، فقد كان محمَّد ﷺ المتسامح الأكبر، ولم يتخذ موقفًا صعبًا ضد كل الذين كانوا يعتدون عليه بالسبِّ، أو بمد الأيدي، أو بعرقلة الطريق، فقد كان متسامحًا، فتبعه أصحابه ثم تبعه المسلمون،

وكانت ولا تزال صفة التسامح هي إحدى المميزات والسمات الراقية للدين الإسلامي (١).

- في صدد بيان المساواة بين الناس التي شرعها وطبقها الإسلام يرى الفيلسوف الأستاذ توماس كارليل Thomas Carlyle: "في الإسلام خلّة يراها من أشرف الخلال وأجلِّها، وهي التَّسوية بين النَّاس، فهم في الإسلام سواء" (٢). وقال أيضًا: "إنما محمَّد شهاب أضاء العالم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا يخفى على أحد فضيلة هذا النبي العظيم" (٣). ﷺ.

- يقول الفيلسوف المفكر روجيه غارودي في كتابه: "الإسلام دين المستقبل": إن إحدى سمات الإسلام التي تفسر وتعلل انتشاره السريع هي انفتاحه مع تسامحه. لقد أمر القرآن العزيز باحترام أهل الكتاب وحمايتهم، وهم اليهود والمسيحيون، كما أنه أرسى وأثبت عقيدة إبراهيم ﷺ وهو الذي يعد المرجع المشترك (٤).

المطلب الرابع: من أقوال المستشرقين:

- عقد المستشرق المسلم "جون لويس ميشون Jean-Louis Michon " مقارنة بين تسامح الإسلام وتعصُّب الصليبيِّين بقوله: المسيحيُّون

(١) ينظر: (محمَّد في الآداب العالمية المنصفة: ٢٠).

(٢) ينظر: (الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة: ١٩٠).

(٣) (الأبطال: ٥٥؛ أروع ما قيل في النجاح مع حكم وتراجم بعض المشاهير: ١٨١).

(٤) (الإسلام دين المستقبل: ٤٥).

تعلَّموا الكثير من المسلمين في التَّسامح وحسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرَّحمة والإحسان عند الشُّعوب والأمم،

كل ذلك بفضل تعاليم نبيهم محمَّد ﷺ (١).

– قال المستشرق الإنجليزي مونتجومري واط Montgomery Watt: إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتَّبعوه واعتبروه سيدًا وقائدًا لهم، إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة، كل ذلك يدل على العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه [ﷺ] (٢). وهي دليل على سماحته ولطفه ورحمته وكريم خلقه ﷺ.

– نقل المستشرق الفرنسي إميل درمانغم (أو درمنجم) Emile Dermenghem عن: أندرو روبرتسن Andrew Robertson في كتابه "تاريخ شارلكن": "إن أتباع محمَّد [ﷺ] وحدهم هم الذين جمعوا بين التسامح والدعوة إلى الإسلام" (٣). وأضاف درمنغم يقول: "برهن [محمد ﷺ] في انتصاره النهائي، على عظمة نفسية؛ ندر أن يوجد لها مثال في التاريخ؛ إذ أمر جنده بالعفو عن الأطفال والنساء والمسنين الضعفاء، وحذرهم من هدم البيوت، أو سلب التجار، أو قطع مثمرات الأشجار، ونهاهم عن تجريد السيوف إلا للضرورة القصوى، بل إنه قد أنَّب بعض قواده لإصلاح أخطائهم إصلاحاً ماديًّ قائلًا لهم: إن نفسًا واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء" (٤).

– يقول المستشرق الفرنسي أرنست رينان Ernest Renan: أثبتت الوقائع التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ أن محمدًا [ﷺ] كان بريئًا من روح

(١) ينظر: (سياحة دينية في الشرق: ٣١؛ أوروبا والإسلام: ١٠٣؛ ١٦١).

(٢) ينظر: (محمَّد ﷺ في مكة: ١٢١– ١٢٢).

(٣)حياة محمَّد في عيون مستشرق: ٣٦٢؛ محمَّد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل: ٥٠

(٤) ينظر: (محمَّد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل: ٥٠).

الكبرياء، متواضعًا، صادقًا أمينًا، لا يحمل الحقد لأحد، وكانت طباعه نبيلة، وقلبه طاهرًا، ورقيق الشعور" [١].

– ولقد ألفت المستشرقة الألمانية "آن ماري شيمل Annemarie Schimmel" (ت: ٢٠٠٣ م) قرابة مائة كتاب، منها: "الإسلام دين الإنسانية"، ومنها: "وأن محمدا رسول الله"، وأوصت بقراءة القرآن الكريم على قبرها.

نعم إن الإسلام دين الإنسانية، والله ربنا ورب جميع الناس، ونبينا محمد هو رسول إلى كافة الخلق أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، اللهم أحينا عليها، وتوفنا عليها، واحشرنا عليها، واجعلنا اللهم ربنا من صالح أهلها.

المطلب الخامس: من أقوال الآخرين:

– قال الدكتور نظمي لوقا: "ما أرى شريعة أدعى للإنصاف، ولا أنفى للإجحاف والعصبيَّة من شريعة تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المَائِـدَة: ٨].

– يذكر الكونت ليف أو ليو نيقولا يافيتش تولستوي Leo Tolstoy [٢]. أن محمَّد [ﷺ] هدى أمة بأكملها إلى نور الحقِّ المبين، وجعلها حقا تجنح للسَّلام، وتكفُّ عن سفك الدِّماء وتقديم الضَّحايا.. يكفيه فخرًا أنّه خلّص أمةً كانت دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، فاتحا لهم طريقَ الرقي والتقدم والازدهار [٣].

---

(١) المرجع نفسه: ٤٩.

(٢) أديب وكاتب روسيا الأعظم، أعظم الروائيين. (أوروبا والإسلام: ٦٥).

(٣) ينظر: المرجع نفسه: (٦٤)؛ (محمَّد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل: ٥٣).

– يقول بريفولت Briffault [١]: انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثًا طبيعيًا من القرآن، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة

بطابع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوة العالمية.

– قال السير وليام ميور William Muir الإنجليزي: التَّواضع وإنكار الذَّات والرَّأفة والأناة والإنسانية والسَّماحة والإخاء والسَّخاء تغلغلت في نفس محمَّد [ﷺ]، ووثقت به محبَّة كلّ من حوله،

وكان يكره أن يقول: لا. فإن لم يتمكن من إجابة الطالب آثر السكوت [٢].

– يعلن توماس أرنولد عن سماحة الإسلام بأن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح

– لا نجد لها معادلًا في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة،

وإن دوام الطوائف المسيحيّة في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين

كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح [٣].

– يقول عميد الدراسات التبشيرية في أمريكا (ساليب) في كتابه

"المسلم يواجه المستقبل": "إن المتحول إلى الإسلام يصلي إلى جانب أستاذه! إن الأخوة في الإسلام ليست دينية فحسب، بل إنما اجتماعية أيضًا، فالإسلام لا يرسم خطًا لونيًا بين الأبيض والأسود" [٤].

---

(١) روبرت بريفولت: الطبيب وعالم الاجتماع والروائي الفرنسي.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: (١٦٦)؛ (آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام: ٥٧؛ ٥٨).

(٣) بنظر: (التسامح وأبعاده الحضاريّة في الفلسفة الغربيّة: ٢٢).

(٤) (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح: ١٢٣).

– قال بطريك بيت المقدس في القرن التاسع عن العرب في كتابه إلى بطريك القسطنطينية: " إنهم يمتازون بالعدل، ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف" (١).

وهناك المزيد بعد المزيد مما يضيق المقام عن ذكره وحصره في هذه العجالة التي تستوجب الاختصار.

(١) ينظر: (شمس الله تشرق على الغرب: ٣٦٤).

الخاتمة

تضمن هذا البحث جملة من القضايا والمسائل لها نتائج هامة، أهمها:

١. الإسلام دين العدالة والمساواة، واليسر والرَّحمة والتَّسامح.

٢. التَّسامح أمر مشروع في القرآن والسنة وإجماع الأمة، بل هو مراد مطلوب مندوب محبوب.

٣. الإسلام كله تسامح؛ بسبب تغلغله في جميع التفاصيل: عبادات ومعاملات والعلاقات بين النَّاس من العلاقة الأسرية وصولًا إلى العلاقات الدولية.

٤. التَّسامح في الإسلام واقعي في كل شيء، ليس أمرا مثاليًّا، ولم يتقيد بعهد من العهود.

٥. كثير من غير المسلمين دخلوا في الإسلام لا بدعوة، بل بأخلاق التجار المسلمين.

٦. التزم الإسلام بتطبيق العدالة مع الجميع، ولم يظلم فئة ولو من غير المسلمين.

٧. عاش أهل الذمة في كنف الإسلام تحت ظل الحكم الإسلامي في حرية تامة لا مزيد عليها.

٨. هناك مظاهر لسماحة الإسلام منها، التحية بإلقاء السَّلام، ورده.

٩. ذكر البحث العديد من الأقوال لزعماء عالميين، وعلماء ومستشرقين يشيدون بفضل الإسلام وسماحته ورحمته، ومنزلة نبيه الكريم محمَّد ﷺ.

المقترحات والتوصيات:

يقترح الباحث هنا استثمار وسائل التواصل الاجتماعي: الفيسبوك، والتويتر، واليوتيوب، والانستغرام والتلغرام... إلى آخره.

أحسن استثمار في نشر روح التسامح الإسلامي في منشوراتهم الفردية والجماعية، فهذا العمل من باب الدعوة إلى الله ﷻ ولو بآية،

وكذلك النشر في جميع المجالس. ويوصي الباحث بعمل ملصقات جدارية في الشوارع الرئيسة في المدن الإسلامية لا سيما العواصم، تكتب فيها نصوص القرآن والسنة التي تبين سماحة الإسلام الحنيف، وعلى عاتق جامعاتنا والكليات عقد مؤتمرات وندوات وملتقيات... في هذا الصدد لأجل نشر الثقافة التسامحية الإسلامية الأصيلة.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أحكام أهل الذمة، شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١ هـ)، يوسف بن أحمد البكري، وشاكر بن توفيق العاروري، (الدمام: رمادى للنشر، ط:١، ١٤١٨).
٢. آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام، زكريا هاشم زكريا، مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠، (القاهرة: مكتبة الأسرة، د. ط، د. ت).
٣. أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ)، تح: هنداوي، ((بيروت: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤٢٢هـ).
٤. الإسلام دين المستقبل، روجيه غارودي، ترجمة: بارودي، (بيروت- دمشق: دار الإيمان).
٥. الإسلام نهر يبحث عن مجرى، د. شوقي أبو خليل، (دمشق، دار الفكر، ط:١، ١٤١٧هـ).
٦. إنجيل متى، (بيروت: المطبعة الأمريكانية، د. ط، ١٩١٠م).
٧. أوروبا والإسلام، د. عبد الحليم محمود، (القاهرة: دار المعارف، ط:٤، د. ت)
٨. البلاغة الصافية، حسن بن إسماعيل الجناجي، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، د: ط، ٢٠٠٦).
٩. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، (د. ب: مكتبة الرشد للنشر، ط:١، ١٤٢٢ هـ).
١٠. البيان في فضل الإسلام ونبيّه العدنان، أبو عبد الرحمن جمال بن محمد بن محمود، (بيروت: دار الكتب العلمية، د: ط، ٢٠١٠ م).
١١. التحرير والتنوير، محمَّد الطاهر ابن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ)، (تونس، دار سحنون، د: ط، ١٩٩٧هـ).
١٢. التسامح الفعل والمعنى، عبد القادر بوعرفة وآخرون، (الجزائر: دار القدس العربي، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكر بالجزائر، ط:١، ٢٠١٠ م).
١٣. التسامح بين شرق وغرب، سمير الخليل وآخرون- دراسات في التعايش والقبول بالآخر -، (بيروت: دار الساقي، ط:١، ١٩٩٢ م).
١٤. التسامح في كلمات، منظمة الأمم المتحدة- (اليونيسكو، تنسيق: أ. بول سيبلو، ١٩٩٧ م).

١٥. التسامح وأبعاده الحضاريّة في الفلسفة الغربيّة، عبد الله محمد علي الفلاحي، (مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العدد: ٢٢، شتاء ٢٠٢١ م)
١٦. التعريفات، علي بن محمَّد المعروف بالسيد الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ)، تح: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤٠٣ هـ).
١٧. تفسير الشعراوي (الخواطر)، الشيخ محمَّد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨ هـ)، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب، د: ط، ١٩٩١ م).
١٨. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمَّد سيد طنطاوي، (القاهرة: دار نهضة مصر، ط:١، ١٩٩٨م).
١٩. التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمَّد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١ هـ)، (القاهرة: عالم الكتب، ط:١، ١٤١٠ هـ).
٢٠. تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦ هـ)، (السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، ط:١، ١٤٢٢ هـ).
٢١. الجامع الكامل في الحديث الصحيح الشامل – المرتب على أبواب الفقه– ، أبو أحمد محمد عبد الله الأعظمي المعروف بـ "الضياء"، (الرياض: دار السلام، ط:١، ١٤٣٧ هـ).
٢٢. جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي بك (ت: ١٣٦٢ هـ)، تح: د. يوسف الصميلي، (بيروت: المكتبة العصرية، ط:١، ١٩٩٩ م).
٢٣. الحاوي للفتاوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١ هـ)، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٤ هـ).
٢٤. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: مؤسسة هنداوي د. ط، ٢٠١٢).
٢٥. الحوار أفقا الفكر، د. طه عبد الرحمن، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط:١، ٢٠١٣).
٢٦. حياة محمَّد في عيون مستشرق، إميل درمنغم، ترجمة: عادل زعيتر، (بيروت: دار العلم للملايين، د: ط، ٢٠١٣ م).

٢٧. الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت: ١٨٢ هـ)، تح: طه عبد الرؤوف، وسعد حسن، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، د. ط، د. ت).
٢٨. الدرر في اختصار المغازي والسير، يوسف بن عبد البر (ت: ٤٦٣ هـ)، تح: د. شوقي ضيف، (القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٤٠٣ هـ).
٢٩. الدعوة إلى الإسلام – بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية– توماس أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، وآخرين، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط:١، ١٩٤٧ م).
٣٠. دفاع عن الإسلام، د. لورا فيشيا فاغليري، ترجمة: منير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨١ م).
٣١. دلائل النبوة، أبو القاسم إسماعيل بن محمَّد الطليحي (قوام السنة) (ت: ٥٣٥ هـ)، تح: محمَّد الحدّاد، (الرياض: دار طيبة، ط:١، د. ت).
٣٢. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، حسين حسيني معدي، (دمشق: دار الكتاب العربي، ط:١.
٣٣. روح الإسلام، محمَّد عطية الإبراشي، (القاهرة: مكتبة الانجلو مصرية، ط:١، ١٩٦٤ م).
٣٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤١٥ هـ).
٣٥. رياض الصالحين، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦ هـ)، تعليق وتح: د. ماهر ياسين الفحل، (دمشق– بيروت: دار ابن كثير، ط:١، ١٤٢٨ هـ).
٣٦. زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ط٢٧، ١٤١٥ هـ).
٣٧. زهرة التفاسير، محمَّد بن أحمد المعروف بأبي زهرة، (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط، د. ت).
٣٨. سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي (ت: ٩٤٢ هـ)، تح: عادل عبد الموجود، علي معوض (بيروت: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤١٤ هـ).

٣٩. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)، تح: محمَّد محيي الدين عبد الحميد، (مصر: مطبعة السعادة، د. ط، د. ت).
٤٠. سنن الترمذي (الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل)، الترمذي، تح: بشار عواد، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د. ط، ١٩٩٨ م).
٤١. السنن الكبرى، البيهقي، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، (د. ب: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية (د. عبد السند حسن يمامة، ط:١، ١٤٣٢ هـ = ٢٠١١ م).
٤٢. السيرة النبوية، أبو محمَّد جمال الدين عبد الملك بن هشام (ت: ٢١٣ هـ)، تح: مصطفى السقا، والابياري، والشلبي، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٧٥ هـ).
٤٣. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تح: طه عبد الرؤوف سعد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤١٧ هـ).
٤٤. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت: ١١٢٢ هـ)، تح: طه عبد الرؤوف سعد، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د. ط، ١٤٢٤ هـ).
٤٥. شرح النووي على صحيح مسلم المسمى: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦ هـ)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢ هـ).
٤٦. شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي (ت: ٤٤٩ هـ)، تح: ياسر بن إبراهيم، (الرياض: مكتبة الرشد، ط:٢، ١٤٢٣ هـ).
٤٧. شرح مقدمة التفسير لابن تيمية، الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١ هـ)، إعداد وتقديم: أ. د. عبد الله بن محمد الطيار، (الرياض: دار الوطن، ط:١، ١٤١٥ هـ).
٤٨. شمس الله تشرق على الغرب = فضل العرب على أوروبا، د. سيجريد هونكه، ترجمة: فؤاد حسنين، (القاهرة، دار العلم العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣٢ هـ).

٤٩. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، البخاري، تعليق: د. مصطفى البغا، (بيروت، دار طوق النجاة، ط:١، ١٤٢٢ هـ).
٥٠. علماء الغرب يدخلون الإسلام، محمَّد حلمي، (القاهرة: النهضة العربية للصحافة والإعلان، ط:١، ١٩٩٤ م).
٥١. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، البدر العيني، (د. ب، إدارة الطباعة المنيرية، د. ط، د. ت).
٥٢. العولمة وتأثيرها على النظم القانونية في الأقطار العربية: دراسة مقارنة، المستشار د. جابر بن خلفان بن سالم الهطالي، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط:١، ٢٠١٥ م).
٥٣. غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط:١، ١٤٠٥ هـ)
٥٤. غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، محمد السجستاني العُزيري، سوريا: دار قتيبة، ط:١، ١٤١٦.
٥٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (بيروت: دار المعرفة، د. ط، ١٣٧٩.
٥٦. فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البَلَاذُري، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د. ط، ١٩٨٨م).
٥٧. القرآن يقوم وحده: في آفاق نصرة الرسول ﷺ والقرآن، علاء الدين المدرس، (بغداد: دار القيم، عمان دار المأمون، د: ط، د: ت).
٥٨. قصة الحضارة، ديورَانت، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د: ط، ١٤٠٨ هـ).
٥٩. كتاب الأموال، القاسم بن سلاّم، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، د: ط، ١٣٥٣ هـ).
٦٠. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود الزمخشري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧ هـ).
٦١. مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو (ت: ١٣٤٦ هـ)، (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، د: ط، ١٩١٣ م).

٦٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧ هـ)، تح: حسام الدين القدسي، (القاهرة: مكتبة القدسي، د: ط، ١٤١٤ هـ).
٦٣. محمَّد ﷺ في مكة، ويليام مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د: ط، ١٤١٥هـ).
٦٤. محمَّد الرسالة والرسول، د. نظمي لوقا، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط:٢، ١٩٥٩ م).
٦٥. محمَّد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل، بشرى زخاري، (القاهرة: عالم الكتب، ط:٢، د: ت).
٦٦. محمَّد في الآداب العالمية المنصفة، محمَّد عثمان عثمان، (دمشق: دار الرشيد، ط:٢، ٢٠١٨ م).
٦٧. مختار الصحاح، الرازي، (بيروت، صيدا: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، ط:٥، ١٤٢٠ هـ).
٦٨. مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، (بيروت: دار الكلم الطيب، ط:١، ١٤١٩ م).
٦٩. المستدرك على الصحيحين، الحاكم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤١١ هـ).
٧٠. مسند إسحاق بن راهويه، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط:١، ١٤٢٣ هـ).
٧١. مسند الإمام الدارمي، تح: د. مرزوق بن هياس الزهراني، (د: ن، ط:١، ١٤٣٦ هـ).
٧٢. المسند، الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢١ هـ).
٧٣. مصابيح السنة، البغوي (ت: ٥١٦ هـ)، (بيروت: دار المعرفة، ط:١، ١٤٠٧ هـ).
٧٤. معالم تاريخ الإنسانية (المجلد الثالث: في المسيحية والسلام والعصور الوسطى وعصر النهضة)، هـ. ج. ويلز، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:٤، ١٩٩٤ م).
٧٥. المعجم الكبير، الطبراني، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط٢، د: ت).

٧٦. معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار، (القاهرة: عالم الكتب، ط:١، ١٤٢٩ هـ).
٧٧. المعجم الوسيط، (إبراهيم مصطفى، وآخرون)، دار الدعوة، (القاهرة: مجمع اللغة العربية).
٧٨. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط:١، ١٤٢٤ هـ).
٧٩. مفتاح العلوم، السكاكي (ت: ٦٢٦هـ)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٧ هـ).
٨٠. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ).
٨١. موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف: عَلوي عبد القادر السقاف.
٨٢. الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصادق عرجون، (جدة: الدار السعودية، ط:٢، ١٤٠٤ هـ).
٨٣. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي (ت: بعد ١١٥٨هـ)، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط:١، ١٩٩٦ م).
٨٤. موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام، أحمد بن سليمان أيوب، (الكويت: دار إيلاف الدولية، ط:١، ١٤٣٦ هـ).
٨٥. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير (بيروت: المكتبة العلمية، د. ط، ١٣٩٩هـ).

٨٦. Mohamed the Prophet of Islam, K. S. Ramakrishna Rao, World Assembly of Muslim Youth (WAMY), Riyadh, Al-Furqan (WAMY series of Islam (133), Advertisement Agency, 1393- 1973).